

الفصل الرابع

السلوك الفطري والمكتسب

الإنسان كائن متحرك ، مضطر إلى سلوك طرق كثيرة تحت تأثير الظروف المختلفة المحيطة به ، وقد اتضح لنا عند الكلام على الفعل المنعكس ، كيف يسلك الإنسان حين يرد على المؤثرات التي يصادفها . فإذا وخزت شخصاً بدبوس وخزاً خفيفاً في يده على غمرة ، فإن يده تتراجع ، هذا النوع من السلوك يخلو من إرادة الشخص ، وقد يخلو من الشعور ، ونستطيع أن نقول : إن هذه الحركة هي حركة فسيولوجية بحتة .

ولكن هناك طوائف أخرى من السلوك ، تصدر عن العقل ، وعن الشعور بدرجاته المختلفة . هذا السلوك الصادر عن العقل ، المصحوب بأي نوع من أنواع الشعور ، هو الذي تهمننا دراسته في علم النفس .
ولما كان لا بد لكل حركة من دافع ، فلا بد من وجود دوافع تبعث الإنسان إلى السلوك أيضاً ، هذه الدوافع نسميها الميول^(١) .

وقد حاول العلماء من قديم الزمان أن يصنفوا هذه الميول ، وجميع هذه التصنيفات التي اقترحتها الفلاسفة ترجع في النهاية إلى نوعين :

(١) تصنيف الميول حسب موضوعها أو ما تتعلق به ، مثال ذلك تقسيم « أفلاطون » للميول إلى ثلاثة أنواع : ميل إلى الاستمتاع ، وميل إلى السيطرة والقوة ، وميل إلى العلم .

(٢) تصنيف الميول حسب طبيعتها ، وقد قسم « أرسطو » الميول تبعاً لذلك إلى نوعين : فطرية ومكتسبة .

ويخيل إلينا أن تصنيف أرسطو أدنى إلى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى أخذ به علماء النفس فى الوقت الحاضر ، وهو السبيل الذى سنسلكه فى هذا الكتاب . يخرج الطفل الصغير إلى العالم وعنده استعداد للرضاعة ، ويميل إليها ، فهو يمص ثدى أمه بالفطرة ، هذا الميل عند الطفل لاشك أنه فطرى ؛ ويميل كثير من الناس إلى التدخين ، وهذا الميل هو ما نسميه بالعادة ، ولاشك أن عادة التدخين مكتسبة ؛ فميل الطفل إلى الرضاعة يتحقق فى صورة من السلوك لا يتعلمها الإنسان ، بينما ميل الشخص إلى التدخين يتكون من حركات وأعمال كثيرة يكتسبها الشخص .

يولد الطفل ساذجا ، إلا من دوافع تبعته إلى الحركة ، وتؤدى إلى الاحتفاظ بكيانه . هذه الدوافع الأولى ، التى تجهز الطفل بالمؤونة التى يستعين بها على السفر فى رحلة الحياة ، هى دوافع فطرية .

والإنسان فى ذلك كالحيوان ، لأنه لا يعدو أن يكون نوعاً من جنس الحيوان ولكنه نوع راقٍ منه . فإذا نظرنا إلى ضروب الحيوان المختلفة ، نجد أن طائفة كبيرة من أعمالها وسلوكها فى الحياة تجرى بالفطرة ، وإليك مثلاً يقع تحت أبصارنا كل يوم ، ويوضح بجلاء ما نذهب إليه ، فالقط الصغير الذى تربيته فى المنزل بعيداً عن أمه ، وحيداً عن أقرانه ، لا يلبث أن يرى فأراً حتى ينقض عليه فهذا السلوك الذى يسلكه القط سلوك فطرى ، لأنه لم يكتسبه ، ولم يتعلمه عن طريق القدوة أو التدريب . كذلك الطيور التى تهجر فى فصل من فصول السنة ، لاتعلم هذه الهجرة ، ولكنها تميل إليها بالفطرة .

هناك ميول كثيرة ، هي التي توجه كل شخص إلى الجهة التي يسلكها في حياته ، فهذا « روسو » مثلا تعلم حرفة النقش ، وكان يزاول نقش الحيطان ، ولكنه زهد ذلك واتجه إلى دراسة الفلسفة والأدب ، رغماً عن أنه لم يكن تلميذاً وهو صغير . فكل شخص عنده ميل خاص نحو شئ من الأشياء كالموسيقى أو الأدب ، أو العلوم الرياضية ، أو الأعمال اليدوية ، بحيث يكون سلوك الإنسان قائماً على أساس هذا الميل الفطري .

فإذا كان أساس السلوك عند الإنسان فطرياً ، فإن صور السلوك التي يتبعها بعد ذلك ، يكتسب أغلبها بالتعود .

وهنا نسأل أنفسنا ، كيف تصل إلينا هذه الميول الفطرية ؟

لا شك أن الاستعدادات الفطرية لا تهبط إلينا دون سبب ، ولكنها تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وقد ثبت في علم النبات أن الصفات الموجودة في جيل ، تنتقل بنفسها إلى الجيل الذي يليه ، وذلك طبقاً لقوانين معروفة ليس هنا محل ذكرها . ويتبع الحيوان نفس هذه القوانين ، ولكن بأسلوب أكثر تعقداً ، ومن الثابت أن الإنسان يرث الصفات الجسمية عن آباءه وأجداده ، كالطول والقصر ، والقوة والضعف ، ولون العين والشعر والبشرة ، والاستعداد للتأثر ببعض الأمراض الخ . وما يهمننا هو تسجيل أن الإنسان يرث الصفات الخلقية والنفسية ، كما يرث الصفات الجسمية ، وتقصد بذلك أنه يرث الاستعداد لبعض الصفات الخاصة ، حتى إذا صادفته الظروف التي تستطيع هذه الصفات أن تظهر فيها ، أسرع إلى الظهور ، وقد أجرى العلماء كثيراً من المشاهدات على بعض الأسر ، للتحقق بالطرق العلمية والإحصاء ، إلى أي حد يتأثر الأبناء بالصفات الخلقية عن الآباء ؛ وإليك مثلاً غريباً ذكره الدكتور « جودارد » عن أسرة

كاليكاك « Kallikak » وقصة هذه الأسرة ، أن عميدها الذي يسمى مارتن كاليكاك ، التحق في سن الواحدة والعشرين بجيش الثورة بالولايات المتحدة عام ١٧٧٥ ، فقابل فتاة ضعيفة العقل في أحد الفنادق واتصل بها ، وأنجب غلاماً خرج ضعيف العقل أيضاً . وقد تتبعوا ذرية هذا الغلام وعرفوا منها أربعاً وثمانين خلفاً ، فتبين أن منهم مائة وثلاثة وأربعين شخصاً ضعاف العقول ، وستة وأربعين شخصاً ذوو عقل سليم ، ولم يكن في الاستطاعة الفحص عن عقلية الباقين جميعاً ، ولكنهم عرفوا أن ستة وثلاثين شخصاً كانوا أبناء غير شرعيين ، وأن ثلاثة وثلاثين إباحيون ، وأربعة وعشرين سكيرون ، وثلاثة أشخاص عرضة للصرع ، وثلاثة اتهموا بالإجرام ، وثمانية يديرون منازل للدعارة ، بينما توفي اثنان وثمانون في عهد الطفولة .

ومن الموازنات اللطيفة في هذه الأسرة ، دراسة الخلف الذي أنجبه مارتن كاليكاك من زوجته الشرعية ، ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تزوج من فتاة عادية تمت إلى أسرة طيبة ، وقد بلغت الذرية الجديدة أربعاً وستة وتسعين شخصاً ، لم يكن بينهم رجل أو امرأة في عقله ضعف أو خروج عن المألوف ، بل كان من بين هذا الفرع من الأسرة حكام ، وأساتذة في الجامعة ، وآخرون ارتقوا مناصب عالية في المجتمع .

فالميل إلى الإجرام والضعف العقلي والاستهتار وفساد الأخلاق في الفرع الأول من هذا الجد ، والميل إلى الاستقامة والجد والاتزان والعقل السليم في الفرع الثاني ، لا يفسر إلا بتأثير الوراثة .